في تاريخ العرب

للدكتور زكي محمد حسن

على هامش كتاب History of the Arabs
للدكتور فيليب حتي الاستاذ بجامعة برنستون

كتب المستشرقون وكتب المسلمون أنفسهم المؤلفات الكثيرة عن تاريخ العرب والمسلمين عامة ، وتضاربت الآراء في قيمة هذه المؤلفات ، ولكن الكتاب الذي ظهر حديثاً للاستاذ الدكتور فيليب حتي يختلف عن كل ما كتب في هذا الموضوع ، ويمتاز في المادة والاسلوب وطريقة البحث . ولسنا نقصد ان نعرض او ان نشير الى الابحاث والكتب التي ألفت في شتى موضوعات التاريخ الاسلامي وفروعه ، فان مثل هذه الكتب ، بطبيعة حجمها وكون كل منها موقوفاً على دراسة ناحية او مشكلة من مشكلات التاريخ الاسلامي ، تكون أوفى غرضاً وأوسع مادة وأدق منهجاً ، ولكننا نريد الكتب التي عقدت فصولها للكلام عن التاريخ كله او جله في تركيز وايجاز لا يمكن بدونها ان يلم المؤلف بتاريخ المسلمين او العرب في مجلد واحد من القطع المتوسط

ولم تكن هذه الكتب الاخيرة كثيرة في شتى اللغات فليس بالانجليزية الا كتاب مور [1] والسيد امير علي [2] . وبعض كتب أخرى مختصرة جداً . وليس في الفرنسية الا كتاب هوار [3] . فضلاً عن بضعة مؤلفات موجزة لا تفي الموضوع حقه . اما الالمانية فقد كانت أغنى من اللغتين السابقتين بل كانت في التاريخ العلمي الصحيح أغنى من اللغة العربية نفسها . فمؤلفات

---

(١) W. Muir : The Caliphate وقد طبع سنة ١٨٨٣ وسنة ١٨٩١ وسنة ١٨٩٨ وظهرت منه طبعة جديدة منقحة على يد T. H. Weir بادنبره سنة ١٩٢٤

(٢) Syed Ameer Ali : A Short History of the Saracens (London 1921) وتظهرت بعض مؤلفات اخرى بالانجليزية في تاريخ العرب والمسلمون غير السيد امير علي من المؤرخين الهنود

(٣) C. Huart : Histoire des Arabes (Paris 1902)

فون كريمر[١] . وفيل[٢] وبيكر[٣] لا تزال مراجع ثمينة في التاريخ الاسلامي عامة وليس في اللغة العربية كتاب واحد يضم بين دفتيه تاريخ العرب او المسلمين على نحو علمي صحيح[٤]

وهكذا يرى القراء أن كتاب الدكتور حتي سدَّ ثغرة في عالم التأليف . على ان المؤلف يبدأ مقدمتهُ بان كتابه «محاولة متواضعة لحكاية سيرة العرب والشعوب التي تكلمت العربية منذ العصور الاولى حتى الفتوح الثمانية في بداية القرن السادس عشر» ، ولكن الحق أنهُ عمل جليل يشهد بعلم وافر واطلاع واسع ومثابرة مضنية ، ولا غرو فالمؤلف يعترف في المقدمة بان هذا الكتاب ثمرة عمل دام سنوات طويلة قضاها في الدرس والتدريس بجامعة كولومبيا والجامعة الاميركية في بيروت وجامعة برنستون باميركا

وينص الدكتور حتي في المقدمة على أن الكتاب أعد ليفي بحاجة الطالب وبحاجة القارىء المثقف من غير الاختصاصيين. والواقع أن هذا الكتاب رفيق طيب لأساتذة التاريخ الاسلامي، وإن كنا لا نذهب الى حسبانه مصدراً جامعاً شاملاً يمكن الاعتماد عليه إلى حد كبير . وسنبين علة ذلك في المآخذ القليلة التي سنعرض لها في آخر هذا المقال

ولعل خير وسيلة لتبين ما لكتاب الدكتور حتي من شأن خطير أن نستعرض اقسامه وفصوله

قسم المؤلف كتابه خمسة اقسام ، عقد الاول للكلام عن العصر الجاهلي ، والثاني عن قيام الاسلام وعصر الخلفاء الراشدين، والثالث عن الفيصريتين الاموية والعباسية ، والرابع عن العرب في اسبانيا وصقلية ، والخامس عن آخر الدول الاسلامية في العصور الوسطى وعن الحروب الصليبية

أما القسم الاول فقد بدأه المؤلف بالتحدث عما لتاريخ العرب من شأن خطير ، على الرغم من ان المعروف عن بلاد العرب لا يتناسب وكون المسلمين يبلغ عددهم الآن نحو سبع سكان العالم او سدسه ، ولا يتفق مع عظمة المسلمين ، الذين لم تكن لهم قيصرية مترامية الاطراف فحسب ، بل ورثوا المدنيات التي قامت على ضفاف الدجلة والفرات والنيل ، واكتسبوا من العالم الاغريقي الروماني القديم ، وكانت لهم ثقافة عظيمة اثرت في اوربا في العصور الوسطى فبعثت النهضة فيها . وكان التراث الذي خلفه العرب والناطقون بالضاد اكبر من تراث أي شعب آخر

---

(١) A. von Kremer : Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen Wien 1875-77)

انظر ايضاً G. Weil : Geschichte der islamitischen Völker von Mohamed bis zur Zeit des Sultan Selim, (Stuttgart 1866) , G. Weil : Geschichte der Chalifen (Bd. 1—3, Mannheim 1846-1851)

C. H. Becker : Islamstudien (Bd. 1-2, Leipzig 192

* ان تاريخ الاسلام السياسي للاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن لم يظهر منه الا محاضرات الاستاذ عبد الحميد العبادي في كلية الآداب لم تطبع بعد . بينما كتاب تاريخ العرب الحضاري للاستاذ موسى وتعليقات اخرى لم تتم في تأليفها فلم يتسن الحكم الصحيح

ثم تكلم الدكتور عن الاستكشافات الحديثة في بلاد العرب ، وعن الشعوب السامية عامة ومهدها في شبه الجزيرة . وعقد بعد ذلك فصلاً عن بلاد العرب : طبيعتها ومناخها ونباتها وحيوانها ، ثم وصف الحياة البدوية ، فتكلم عن الغزو والحماسة والمروءة والعصبية والقبيلة وشيخها. على أن أبدع فصول القسم الاول من كتاب الدكتور حتي انما هي الرابع والخامس والسادس، فقد لخص الدكتور في الفصل الرابع العلاقات الدولية بين العرب وجيرانهم في العصور القديمة : علاقتهم بالمصريين القدماء وبالسوريين والبابليين والاشوريين والفرس واليهود والعالم الاوربي القديم . وكان قوام هذه العلاقة تجارة البخور واللبان والتوابل ومناجم الذهب والنحاس . أما الفصل الخامس فقد شرح فيه المؤلف أحوال الدول القديمة التي قامت في بلاد العرب الجنوبية: المعينية والسبائية والحميرية وتكلم في هذا الصدد عن تجارة بلاد العرب الجنوبية وعن النقوش السبائية والحميرية وكتشفها نيبهر Niebuhr وهالفي Halévy وجلازر Glaser ، وعن مأرب وعن العرب الذين هاجروا من حضرموت واليمن الى شرق افريقية ، حيث أسسوا دولة الحبش السامية الاصل والتي أتيح لها أن تسلطانها الى بلاد العرب الجنوبية في القرن السادس الميلادي، حتى هب لطردهم منها سيف بن ذي يزن بطل السيرة الشعبية المشهورة ، وعاونه الفرس ولكنهم اتخذوا ذلك سلماً لحكم اليمن، وظل نفوذهم قائماً فيها حتى اعتنق الاسلام باذان خاص ولاتهم فيها، فأصبحت اليمن جزءاً من الدول الاسلامية وأصبح شمال بلاد العرب أخطر شأناً من جنوبها

وعقد المؤلف الفصل السادس للكلام عن الولايات التي قامت في شمال شبه الجزيرة قبل الاسلام فكتب عن النبط الذين نزحوا في القرن السادس قبل الميلاد من شمالي اقليم شرقي الاردن الى جنوبيه واتخذوا مدينة البتراء Petra عاصمة لهم فغدت من أعظم المدن في الطريق التجاري بين سبأ وسواحل البحر الابيض المتوسط . وكان النبط يتكلمون اللغة العربية ويستخدمون في كتابتها الحروف الآرامية كما كانت اللغة الارامية لغة العلم عندهم . ثم تطورت الكتابة النبطية في القرن الثالث الميلادي الى الحروف العربية النسخية التي عمّ استخدامها في العالم الاسلامي ، اللهم الا في العصور الاولى حين استخدم الخط الكوفي في كتابة المصاحف وفي كتابة بعض المستندات الرسمية الخطيرة وفي العملة وعلى المآثر والمساجد

وقد شرح المؤلف في هذا الفصل كيف تطورت الرموز الهيروغليفية على يد سكان شبه جزيرة سينا حتى وصلت الى الحروف الابجدية الخالصة ، التي كان الفينيقيون اول من عرفها . ثم تحدث عن مدينة البتراء عاصمة النبط المحفورة في الصخر والتي بلغت اوج عظمتها تحت رعاية الرومان في القرن الاول من الميلاد ، وعن مدينة تدمر التي كانت من أغنى مدن الشرق الادنى في القرن الثاني والثالث بعد الميلاد والتي يبهر العرب بآثارها حتى زعموا انها من بناء الجن

الدكتور فيليب حتي
مؤلف كتاب History of the Arabs

ليدنا سليمان ، وعن بني غسان الذين كانوا يقطنون جنوب شرقي دمشق عند آخر الطريق التجاري بين مأرب والشام والذين اعتنقوا المسيحية وتعلموا الارامية لغة السوريين بدون ان تقطع صلتهم باللغة العربية ثم اسسوا امارة حليفة لبيزنطة تشملهم برعايتها نظير قيامهم بحماية حدود ممتلكاتها في الشام وصد القبائل العربية عنها ، كما اسس اللخميون في الحيرة امارة اتخذها الفرس حليفة لهم تحمي حدود العراق من غارات البدو

وختم الدكتور حتي القسم الاول من كتابه بفصل ممتع عن بلاد الحجاز قبيل الاسلام ، شرح فيه ايام العرب وحروبهم ولغتهم وأدبهم وشعرهم من سجع وقصائد ومعلقات واحوالهم الاجتماعية ودياناتهم وما يتصل بها من اعتقادهم في الجن ومن حجهم الى الكعبة كما تحدث عن اشهر مدنهم في ذلك العصر : مكة ويثرب والطائف ، وعما كان لبلاد العرب الجنوبية والحبشة وايران من تأثير في بعض نواحي الحياة في الحجاز فضلاً عن اثر اليهود والنصارى في تهيئة النفوس للدين الجديد

وفي اعتقادنا ان القسم الاول من كتاب الدكتور حتي أنقص ما في كتابه .. ولعلّ السر في ذلك ان سائر الكتب التي عرضت لتاريخ العرب والمسلمين لم تصل الى تلخيص اهم ما انتجته الابحاث والحفائر والدراسات العلمية من بيانات عن حال العرب قبل الاسلام ، وانما عنيت باخبار العرب في العصر الاسلامي ، ومصادرها كما تعرف كثيرة الى حد كبير . وان صح ان جورجي زيدان جمع في كتابه عن بلاد العرب قبل الاسلام شتات ما تأثر من الاخبار في هذا الموضوع ولخص كثيراً مما جاء في الكتب التي الفت باللغات الاوربية عن العرب في الجاهلية فان تاريخ تأليف هذا الكتاب (١٩٠٨) سابق على كثير من الابحاث والمكتشفات التي أماطت اللثام عن بعض مميات هذه الحقبة من تاريخ العرب

اما القسم الثاني من كتاب الدكتور حتي ، فقد تحدث فيه عن قيام الاسلام : عن سيرة محمد رسول الله وعن طبيعة الدين الاسلامي وعن عصر الخلفاء الراشدين وعن الفتوحات العربية وإدارة الاقاليم المفتوحة وعن النزاع بين علي ومعاوية ، كل ذلك في دقة علمية تستحق الثناء والاعجاب وأسلوب جذاب ممتع وبعد عن التعصب الذي يشوب كتابات كثيرين من المؤرخين المستشرقين والمسلمين القدماء وقد أسدى المؤلف بذلك خدمة جليلة الى الذين يودون الوقوف على الآراء العلمية الصحيحة في هذا الميدان بدون قراءة الكتب المطوّلة في شتى نواحيه

وقد عقد المؤلف القسم الثالث من كتابه للحديث عن الدولة الاموية : عن قيامها ، وعن علاقاتها العدائية باليزنطيين ، وعن اتساع ملكها ، وعن الحياة السياسية والادارية والاجتماعية والعقلية والفنية في عصرها ، ثم عن الدولة العباسية ، والنهضة العقلية التي حملت لواءها ، وعن نظم

الحكومة وطبقات المجتمع والتقدم العلمي في عصرها ، حتى انهُ عقد فصلاً للحديث عن مراحل التعليم وعن المكتبات والورق والورّاقين ، كما عقد فصلاً آخر للكلام عن الفنون فتحدث عن العمارة واشار الى تشييد سامرا وما كان فيها من زخارف جصية ونقوش ونوّه بمنتجات الفنون الفرعية المختلفة كالمنسوجات والخزف والزجاج والمخطوطات المصورة . وهذا تجديد في تأليف الكتب التاريخية حبذا الحال لو عني به المؤلفون حق العناية

ومن ابدع فصول هذا القسم فصل الفرق الدينية في الاسلام وقد لخّص المؤلف فيه تلخيصاً طيباً مبادىء كل فرقة وما ألمّ باتباعها من الاحداث السياسية . وكان طبيعيًّا أن يختم المؤلف حديثه عن الدولة العباسية بما جلبهُ تراخي اطرافها وضعف خلفائها ونمو سلطان الجند الترك فيها من اضمحلالها ، واستقلال اجزائها الناشئة عنها ، وقيام دويلات صغيرة على انقاضها كبني ادريس في المغرب الاقصى ، وبني الاغلب في افريقية (تونس) ، والطولونيين والاخشيديين في مصر والحمدانيين في الجزيرة ، والطاهريين والصفاريين والسامانيين والغزنويين وبني بويه والسلاجقة في ايران وغربي اسيا

وشرح المؤلف في نهاية هذا القسم كيف سقط بنيان الدولة العباسية وتهدمت عاصمتها سنة ١٢٥٨ على يد جموع المغول بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان

واوجز الدكتور حتي في القسم الرابع من كتابه الكلام عن تاريخ العرب في اسبانيا وفي جزيرة صقلية فبدأ بفتح الاندلس وتطرق الى عبور العرب جبال البرانس وتوغلهم في جنوب فرنسا تحت لواء عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، حتى هزمهم الفرنج بقيادة شارل مارتل في واقعة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ بين تور Tours وبواتييه Poitiers

ثم كان سقوط الدولة الاموية في الشرق ، وفرار عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الى المغرب في الاندلس ، حيث افلح في الاستيلاء على السلطان وتأسيس امارة اموية غربية فيها ، وازدهرت هذه الامارة في عصر عبد الرحمن الناصر ، الذي اتخذ لنفسه لقب الخلافة سنة ٩٢٩ . وكان حكمه العصر الذهبي في تاريخ المسلمين بالاندلس ، فاسترد ما كان المسلمون قد خسروه من املاكهم في شبه الجزيرة ، ووطد دعائم حكمه فيها وشيّد مدينة الزهراء ، ووقف حجر عثرة في سبيل تقدم حركة ان Reconquista او استعادة المسيحيين سلطانهم في شبه جزيرة ايبيريه

وعقد المؤلف فصلاً خاصًّا للكلام عن النظم السياسية والاقتصادية وعن المؤسسات العلمية الاسلامية التي ازدهرت في الاندلس وجعلت قرطبة أكثر مدن اوربا علماً وثقافة ، وأحد المراكز الثلاثة للعلم والعرفان في ذلك العصر ، ولا غرو فانها كانت لا تقل بهاء عن زميلتيها : القسطنطينية وبغداد ، وكانت تفخر بأميال من الطرقات المرصوفة والمضاءة ، و بانها

لم يكن في طرقات لندن مصباح واحد بعد هذا التاريخ بسبع مائة سنة » ، وكانت الحمامات امراً مألوفاً في قرطبة إذ ذاك « بينما كانت جامعة اكسفورد تنظر الى الاستحمام كعادة وثنية »، وشرح المؤلف النظم الحكومية واساليب الزراعة والتجارة في الدولة الاموية بالاندلس، ووصف ابهة الخليفة والازدهار العلمي في عهده ثم تكلم عن دكتاتورية المنصور بن ابي عامر في عصر الخليفة هشام الثاني (٩٧٦ — ١٠٠٩) ، قبل أن ينتقل الى سقوط الدولة الاموية ، وقيام ملوك الطوائف ، وتاريخ الولايات التي بقيت في يد العرب بعد ذلك ، والعبر التي شيدت فيها حتى تقلص سلطان المسلمين ، وسقطت غرناطة سنة ١٤٩٢

ومن ابدع فصول هذا القسم ما تحدث فيه المؤلف عن تراث المسلمين في اسبانيا وما خلفوه للعرب ، فتكلم عن لغتهم وادبهم وشعرهم وما استحدثوه من اوزان ومعان ، ثم عن اساليب التعليم عندهم ومجموعات الكتب التي كانت تزدحم بها حوانيت وراقيهم ، وعمن نبغ بينهم من المؤرخين وكتّاب التراجم ، كابن القوطية وابن حيان وابن الفرضي وابن بشكوال وسعيد بن احمد الطليطلي ولسان الدين بن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون ، ثم الجغرافيين والرحالين كالبكري والادريسي وابن جبير وابي حامد محمد المازني الذي زار روسيا سنة ١١٣٦ . وكتب المؤلف عن الفلك والرياضيات والطب وعلم النبات والفلسفة في الاندلس وعما كان للمسلمين من تأثير في تقدم هذه العلوم على يد الاوربيين بعد هذا التاريخ ، واستتم المؤلف سنة حميدة فعقد فصلاً خاصًّا للكلام عن الفن والعمارة الاسلامية في الاندلس وما كان لهما من تأثير في اوربا[1]

وختم الدكتور حتي هذا القسم من كتابه بفصل عن جزيرة صقلية : فتح العرب اياها على يد بني الاغلب في منتصف القرن التاسع الميلادي ، ثم اتخاذها مركزاً لغارات كان المسلمون يشنونها بين حين واخرى على الشواطىء الايطالية ، حتى سقطت الدولة الاغلبية واصبحت صقلية جزءاً من قيصرية الفاطميين ، وظلت كذلك حتى استولى عليها النورمنديون ، ولكنهم ساروا فيها على سياسة التسامح الديني واعزاز المسلمين ورعاية ثقافتهم [2]. وكانت صقلية ميداناً خصباً لتبادل الثقافة بين الشرق والغرب ولا غرو فقد كان سكانها خليطاً من الاغريق الذي يتكلمون اليونانية ، والمسلمين الذين يتكلمون العربية ، والعلماء الذين يستخدمون اللاتينية

بقي الجزء الخامس والاخير من هذا السفر الضخم وقد عقده المؤلف للكلام عن آخر الدول الاسلامية في العصور الوسطى فكتب عن دولة الفاطميين الشيعية في مصر : تاريخها السياسي وحياة المجتمع في عصرها وما ازدهر فيها من علوم وفنون ، ثم عن الدولة الايوبية

---

(١) راجع كتاب تراث الاسلام The Legacy of Islam الذي نقله الى العربية لجنة الجامعيين لنشر العلم (٢) راجع كتابنا « كنوز الفاطميين » ص ٧ و٨ و١٠٣ و١٢٠ و١٤١ و١٤٣

والنزاع بين الشرق والغرب في الحروب الصليبية وختم الكتاب بالتحدث عن دولتي المماليك وحضارة مصر في عصرها

ذلك عرض سريع لما جاء في هذا الكتاب النفيس من موضوعات وبحوث . وانا لنحرص الحرص كله على ان ننوه بالكتاب الطويل الذي الحق به ، وباسلوب الكتاب الرائع، ودقته العلمية ،وربطه بين الفنون والآثار وبين سائر نواحي التاريخ الاسلامي ، بله ان الصور الكثيرة التي تزين الكتاب تساعد على تفهم الحضارة الاسلامية العظيمة ، وتقرب الى الفهم كثيراً مما يستعصي تصوره من الكتابة والوصف . واما ما فيه من رسوم وخرائط فيشهد بطول الباع في الدقة والتحقيق

وان كان ثمة ما نأخذه على الاستاذ المؤلف فهو قبولهُ ان تحذف المراجع في نهاية كل فصل أو قسم ، فان الايجاز في شرح بعض النظريات والمسائل يجعل الاشارة الى المصادر التي توفيها حقها من الدرس امراً لازماً ليستطيع القارىء أن يفي حاجته من التحصيل وان يكون رقيباً على المؤلف ، يقره أو يتخذ لهُ رأياً آخر ، ولممكن فضلاً عن ذلك ان يعد الكتاب مصدراً علميًّا صحيحاً يتخذ حجة ويشار اليه في المؤلفات المطوّلة

وثمة شيء آخر لانجد مفرًّا من الاشارة اليه ملتمسين للمؤلف الجليل عذراً في وقوعه : ذلك اننا لاحظنا ان بعض الموضوعات الخطيرة لم توف حقها من العناية فتالها من صفحات الكتاب أقل مما نال غيرها من المسائل التي لا تساويها خطراً ، ولكن هذا راجع بطبيعة الحال الى حجم الكتاب وطول الحقبة التي عرض لها . كما اننا لاحظنا في بعض ابواب الكتاب ان الاستاذ المؤلف لم يستخدم المؤلفات الحديثة في بعض نواحي التاريخ الاسلامي . وربما كان السبب في ذلك ان ابواب الكتاب المذكورة اعدت قبل صدور المؤلفات المشار اليها وقد سمعت مثل هذا النقد من بعض أفاضل المستشرقين ، كل في الناحية التي وقف نفسهُ على دراستها

***

على ان الاستاذ الدكتور حتي قد وفق الى ابعد حدود التوفيق في قص تاريخ العرب في زهاء سبعمائة صحيفة بطريقة طريفة مع الدقة،وعلمية مع السهولة . ولا نبالغ في شيء اذا قلنا ان كتابه النفيس ألزم عدة لكل من يريد ان يدرس تاريخ المسلمين بدون ارهاق وعلى نحو علمي صحيح . ولا غرو فقد قام الدكتور حتي بالتدريس في الشام وفي اميركا واعد اعداداً طيباً لاخراج هذا المؤلف الجليل واتيحت لهُ فرص للدرس والتحصيل لم يتم بها غيره ممن كتبوا في التاريخ الاسلامي . وحسبهُ فخراً ان ينسب اليه هذا السفر الضخم الذي يدل على علمه الغزير وفضله الواسع